# تحريرُ فلسطين من الغزو الصَّليبي

## قراءةٌ في البعد الحضاري للصراع وإمكانيَّة تكرار الأنموذج

محسن محمَّد صالح *

### مُقدِّمة

يبدو أن إحدى الظواهر العامة لدى الأمم والشعوب استدعاء نماذجها التاريخية ورموزها الكبرى، وتتطلع إلى تقديم نماذج مشابهة، خصوصاً في أوقات الأزمات. وقد كثرت - في التاريخ الحديث والمعاصر - ظاهرة استدعاء نموذج صلاح الدين الأيوبي في أدبيات المفكرين، والسياسيين، والأدباء والشعراء. بل، لقد أصبحت جزءاً من الثقافة الشعبية العامة في أوساط العرب والمسلمين. لقد مثّل صلاح الدين ذات يوم عزة الأمة وكرامتها، وقدرتها على تجاوز محنتها، وتوحيد نفسها، وتحدِّي أوروبا الصليبية وهزيمتها واسترداد القدس. ولذلك، فإن الحاجة - ماسة في واقعنا المعاصر - إلى من يقوم بالدور نفسه في هزيمة المشروع اليهودي الصهيوني واسترداد فلسطين.

---

* أستاذ مشارك بقسم التاريخ والحضارة، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

غير أن ظاهرة التطلع إلى هذا النموذج "الرمز" ظلت ولا تزال قوية في الوجدان العربي والإسلامي. ولا عجب إذا علمنا أن الصهاينة اليهود أنفسهم يخشون من بروز هذا "الرمز" الذي قد يقضي على دولتهم، ويحملون ذلك محمل الجد. فقد تناقلت الأخبار في يونيو ١٩٨١م أن السلطات "الإسرائيلية" شكلت مجلساً من ٣٠ خبيراً من المتخصصين في علم النفس، والتاريخ، والاجتماع، والسياسة، والحرب لدراسة الظروف التي ظهر فيها صلاح الدين الأيوبي، وأن مهمة هذا المجلس هي دراسة إمكانية ظهور "صلاح الدين" في صورة زعيم مسلم، أو جماعة إسلامية، لمجابهة هذا الخطر حال ظهوره.[١]

## قراءة النموذج

هل يمكن حصر نموذج هزيمة المشروع الصليبي في شخص صلاح الدين وتجربته؟ أم أن صلاح الدين يمثل "رأساً" أو "رمزاً" لمشروع جهاديّ حضاريّ ممتد أوسع وأعمق وأشمل؟! إن صلاح الدين يمثل سلسلة أو طبقة في بناء تراكمي بدأ قبله بحوالي سبعين عاماً، واستمر بعده بنحو مائة عام. وقد يمثل صلاح الدين السلسلة الأكثر إشراقاً، لأنه قطف ثمرة الجهاد في معركة حطين الفاصلة، ولأنه حرّر القدس. لكن حصر التجربة في صلاح الدين ونسبة الإنجاز إليه فقط، يضعف قدرتنا على فهم الظاهرة، وعلى دراسة النموذج الذي أدى للتحرير. والرأي الشعبي العام لا تعنيه تفصيلات الظاهرة ما دام "الرمز" حاضراً بقوة في وجدانه، أما الدراسة الأكاديمية فهي تسعى إلى دراسة شاملة نقدية هادئة للتجربة، لتتجاوز احتمال تبسيطها أو تقزيمها في شخص ما. وهذا بالتأكيد لا يقلل من عظمة شخصية صلاح الدين وإنجازاته، ولكننا نقول: إنه كان جزءاً من ظاهرة حضارية جهادية ممتدة، ولم يكن هو وحده الظاهرة كلها.

استمرت الحروب الصليبية نحو ٢٠٠ عام (٤٩٠-٦٩٠هـ، ١٠٩٧-١٢٩١م) حتى انتهت بتحرير عكا آخر معقل للصليبين في فلسطين. ورفع راية الجهاد رجال عظام أمثال أقسنقر البرسقي، وعماد الدين الزنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، والظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، وابنه الأشرف خليل. وبالتالي فنحن أمام فعل تراكمي، وجهادٍ تداولته الأجيال حتى تحقق النصر. بل، لعله من

---

[١] نشرة البراق الصادرة عن دار البراق للوثائق الإعلامية والتحقيقات الصحفية، عدد ١٨، ٣٠ يونيو ١٩٨١، نقلاً عن: زياد أبو غنيمة، **عداء اليهود للحركة الإسلامية** (عمان: دار الفرقان، ط٣، ١٩٨٦) ص١٢٩-١٣٠.

المفيد الإشارة إلى أن القدس نفسها قد احتُلت مرة أخرى بعد صلاح الدين بسبب خيانات بعض أحفاده وتخاذلهم وصراعهم على كرسي الحكم، حيث أدى صراعهم هذا إلى تسليم القدس للصليبيين في الفترة من ٦٢٦-٦٤٦هـ، ١٢٢٩-١٢٤٤م سعياً للاستنصار بهم على بعضهم بعضاً. ومن هنا تأتي أهمية دراسة الظاهرة بشمولها وامتدادها، حتى لا تفوتنا دروس مهمة في الصبر وحرب الأجيال، وفيما تجره علينا ويلات التنازع السياسي، وسلبيات الصراع بين "الورثة".

وبالتأكيد فقد كتبت مئات الدراسات حول الحروب الصليبية، غير أنها قليلةٌ تلك الدراسات التي تجاوزت إطار التأريخ السياسي للتجربة. ومن الدراسات التي تستحق الإشارة كتابا الدكتور حسين مؤنس، وعماد الدين خليل حول نور الدين محمود حيث يتجلى البعد الإصلاحي الشامل الذي قام به نور الدين ومشروع الوحدة الذي مثّله.[٢]

وتستحق الإشارةَ تلك الدراسةُ الجادة المتميزة للدكتور ماجد عرسان الكيلاني "هكذا ظهر جيل صلاح الدين، وهكذا عادت القدس". إذ ركز الكيلاني على أبعاد العمل الإصلاحي التجديدي الذي قام به الإمام الغزالي، والشيخ عبد القادر الكيلاني، ودورهما في علاج أمراض المجتمع، وإعداد الجيل الذي انتصر على الصليبيين. وقدّم دلالات مهمة على أن تلاميذ هذين العالمين ومن تأثر بمدرستهما كان لهم دورهم في الوقوف إلى جانب دور نور الدين، وصلاح الدين في عملية الإصلاح والتغيير وتحقيق النصر. وهو بالتالي يؤكد ما هو أبعد من وجود "الرمز" وهو وجود "الفكرة" وحركة التغيير الاجتماعي التي جعلت الناس مؤهلين لخوض المعركة وتحقيق الانتصار.[٣]

ومن جهة أخرى، حاول الدكتور محمد عمارة في كتابه الذي صدر سنة ١٩٨١م بعنوان "دراسات في الوعي بالتاريخ" أن يقدم تجربة مقاومة الصليبيين في إطار قومي عربي يسقط الأيديولوجيات المعاصرة على تلك التجربة، وهو ما جعله

---

[٢] حسين مؤنس، **نور الدين محمود** (القاهرة، ١٩٥٩). وعماد الدين خليل، **نور الدين محمود: الرجل.. والتجربة** (دمشق – بيروت: دار القلم، ١٩٨٠).

[٣] انظر: ماجد عرسان الكيلاني، **هكذا ظهر صلاح الدين وهكذا عادت القدس** (هيرندن فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٤م).

يضعف دور الدين والقوميات الأخرى في عملية المقاومة والتحرير[٤]. ولعل الدكتور عمارة تخلى عن هذه الرؤية بعد أن تبنى الفكر والتيار الإسلامي بعد ذلك.

وتحاول هذه المقالة أن تسلط الضوء بشكل أكبر على البعد الحضاري من خلال القراءة المقارنة للتجربة، وأن تجمع ذلك الدور الريادي لقادة الإصلاح والجهاد في عمل تراكمي توارثته الأجيال حتى تحقق النصر.

**مقارنة حضارية**

أول ما يسترعي النظر عندما نقرأ تجربة الحروب الصليبية هو التفوق الحضاري الإسلامي العظيم على أوروبا التي كانت تعيش في عصور التخلف والظلام. لقد كان الغزو الصليبي الأوروبي لبلاد الشام ومصر أشبه بغزو بربري لأمة متحضرة، وهذا فرقٌ جوهري عن الغزو الصهيوني ـ الغربي للمنطقة في واقعنا المعاصر وتاريخنا الحديث.

لقد تمثلت الإشكالية الحقيقية لدى المسلمين في فترة الصليبية في حالة التفكك السياسي والاسترخاء الجهادي، وانشغال الطبقة السياسية بمتع الحياة وترفها. غير أن حالة التشرذم السياسي لم يترافق معها انحلال حضاري بالدرجة نفسها. وصحيح أن منسوب التدفق الحضاري الإسلامي قد أخذ تياره بالانخفاض منذ القرن الخامس الهجري، لكنه كان لا يزال يمثل الريادة والقيادة الحضارية الإنسانية، وكان يملك من الحيوية والقوة ما يمكنه من التعاطي مع التحديات التي تواجهه. وعندما نستقرئ صعود الحضارات وهبوطها نجد أن الصعود السياسي والعسكري أسرع عادة من النمو الحضاري المادي، لكنه في الوقت نفسه أسرع هبوطاً وانحلالاً. وهكذا، فإن الدورة الحضارية أبطأ ارتقاءً لكنها أبطأ ذبولاً. إن مقارنة حضارية مادية سريعة تمكننا من رؤية الفارق بين العالم الإسلامي وأوروبا، ونحن نجريها هنا بشكل موجز يتناسب مع حجم المقال وطبيعة الموضوع.

فمثلاً، الحضارة الإسلامية كانت لا تزال قادرة على إنجاب علماء كبار في مرحلة الحروب الصليبية (٤٩٠-٦٩٠هـ) أمثال أبو العلاء المعري ت ٤٩٩هـ، الإمام الغزالي ت ٥٠٥هـ، وعمر الخيام ت ٥١٦هـ، والزمخشري ت ٥٣٨هـ، والشريف الإدريسي ت ٥٤٨هـ، وزهر بن مالك ت ٥٦٥هـ، وابنه عبد الملك بن زهر ت ٥٥٧هـ، وابن رشد

---

٤ انظر: محمد عمارة، **دراسات في الوعي بالتاريخ** (بيروت: دار الوحدة، ١٩٨١) ص ٥١-٧٦.

ت ٥٩٥هـ، وفخر الدين الرازي ت ٦٠٦هـ،، وابن جبير ت ٦١٤هـ، وابن الأثير ت ٦٣٠هـ،، والعز بن عبد السلام، وابن تيمية ٦٦١-٧٢٦هـ، وغيرهم.

وبينما كان سكان أكبر مدينة أوروبية لا يتجاوز خمس وعشرين ألف نسمة كان سكان بغداد يتجاوزون المليونين وسكان قرطبة يتجاوزون المليون. وكان الناس في باريس ولندن وغيرهما يسكنون بيوت الخشب والطين المعجون بالقش والقصب، ولا يعرفون النظافة، ويلقون بأحشاء حيواناتهم وأقذار مطابخهم أمام بيوتهم، وتقتلهم الروائح والأمراض الفتاكة المنبعثة من أمام بيوتهم أو المستنقعات الآسنة من حولهم، ولم يكن في شوارعهم مجارٍ ولا بلاط ولا مصابيح. في هذا الوقت، كان في بغداد عشرة آلاف شارع ودرب، ويدخل إليها أحد عشر نهراً فرعياً لدجلة تمرّ إلى بيوت بغداد وقصورها، وفيها أكثر من عشرة آلاف حمام عمومي، وكانت زاهية بمجالس العلم والأسواق. أما قرطبة فكانت تنار فيها المصابيح التي يستضيء الماشي بضوئها نحو ١٦ كيلو متراً، شوارعها مبلطة، وقماماتها مرفوعة من الشوارع، ومحاطة بالحدائق الغنّاء، وبها ٩٠٠ حمام، و ٦٠٠ مسجد، وفيها خمسون مستشفى، وثمانون مدرسة للتعليم المجاني للفقراء.[٥]

وبينما كان عدد من يستطيع أن "يفكّ" الخط في أوروبا يتجاوز الصفر بقليل أو يُعدّون على الأصابع، فإن نسبة من كان يستطيع القراءة والكتابة في مدن الإسلام كانت عالية جداً وربما تزيد عن ٩٠٪. وكان في بغداد وحدها أكثر من مائة محل للورق (للكتب)، وفيها ٣٦ مكتبة عامة غير المكتبات الخاصة التي لا تحصى. وكان من الطرائف أن يعتذر أحد أطباء بغداد عن دعوة سلطان بخارى للإقامة في بلاطه لأنه يحتاج إلى أربعمائة بعير لنقل مكتبته الخاصة. وربما كانت المكتبة الشخصية للصاحب

---

[٥] انظر مثلاً في: مصطفى السباعي، **من روائع حضارتنا** (بيروت: المكتب الإسلامي، ط٢، ١٩٧٧) ص١٧٣-١٨٢. وأحمد بن علي الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد** (بيروت:دار الكتب العلمية،١٩٨٥) ج١، ص ١١٧-١١٩. أحمد المقري التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق : إحسان عباس (بيروت :دار صادر، ١٩٦٨) ج٢، ص ٢٣٦، ٣٣٤- ٣٣٥. وانظر حول أوضاع أوروبا في تلك الفترة في جوزيف نسيم يوسف، **تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها** (بيروت :دار النهضة العربية، ط٢، ١٩٨٧).
Christopher Brooke, **Europe in the Middle Central Ages 962-1154**, 3rd edition, (Harlow: Pearson Education, 2000).

ابن عباد في الأندلس تفوق كل ما هو موجود في كل مكتبات أوروبا. وكانت اللغة العربية هي لغة الحضارة والعلم.[٦]

لقد أمسكت الحضارة الإسلامية بزمام القيادة البشرية نحواً من عشر قرون، وظلّت أوروبا تتعلم على يديها الطب، والرياضيات، والفلك، والصيدلة حتى القرن السابع عشر. واقتبست منها عدداً من الطبائع النبيلة ومبادئ الفروسية، كمراعاة النساء والأطفال والشيوخ، واحترام العهود، والتسامح الديني. كما تعلمت منها إطلاق العقل من الخرافات، والمنهج التجريبي، والنظام الجامعي بما فيه من إشراف وإجازة، وحتى الروب، وغطاء الرأس عند التخرج، كما تأثرت بها حركات الإصلاح الديني الأوروبي، وحركات التمرد على الإقطاع... واضطر الراهب "جربرت دي أورلياك" مثلاً إلى أن يذهب للدراسة في مساجد الأندلس قبل أن يعود إلى روما ليتولى منصب البابا باسم سلفستر الثاني ٩٩٩-١٠٠٣م!![٧]. وفي ميدان السلاح والصناعة الحربية كان المسلمون أكثر تفوقاً بشكل عام من أوروبا، بل إن الصليبيين كانوا أحياناً - في وقت الهدنة- يشترون السلاح من المسلمين[٨]. وقد استمر التفوق (أو على الأقل التكافؤ) العسكري مع أوروبا إلى ما بعد ٤٠٠ عام من انتهاء الحروب الصليبية مع أوروبا، إذ كان لا يزال بإمكان العثمانيين حتى سنة ١٦٨٣ محاصرة فيينا عاصمة النمسا ومحاربة عدد من الدول الأوروبية مجتمعة. تُرى هل يعوزنا الذكاء أو تنقصنا المعرفة لمقارنة واقعنا العربي والإسلامي المعاصر بالواقع الحضاري المادي الغربي؟!

يقدر البعض بأننا نحتاج نحو مائة عام لتجاوز الثغرة الحضارية بيننا وبين العالم الغربي، ولكن هل سيبقى العالم الغربي ساكناً ينتظرنا إلى أن ندركه؟ أم أننا سنجد

---

٦ انظر في: مصطفى السباعي، **مرجع سابق**، ص١٦٥-١٧٥. وإبراهيم الكروي وعبد التواب شرف الدين، **المرجع في الحضارة الإسلامية** (الكويت: ذات السلاسل، ١٩٨٤) ص٤٤٠-٤٦١.

٧ حول أثر الحضارة الإسلامية في أوروبا، انظر مثلاً : سعيد عبد الفتاح عاشور، **المدنية الإسلامية و أثرها في الحضارة الأوروبية** ( القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٩٨٢). و سيجريد هونكة، **شمس العرب تسطع على الغرب: أثر الحضارة العربية في أوروبا** (بيروت : دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٠) .

٨ مصطفى السباعي، **مرجع سابق**، ص ١٢٦.

بعد مائة عام أن الثغرة قد أصبحت مائتي عام لأنه يجري بسرعة أكثر؟ بل إنهم يتحدثون الآن عن أن الولايات المتحدة تسبق أوروبا نفسها في التكنولوجيا، وخصوصاً تكنولوجيا السلاح بنحو ١٥ عاماً. إننا ببساطة نعيش في عالم متحرك وليس في عالم ساكن، والذي لا يفهم هذه البديهية لا يستطيع أن يدرس المستقبل!!

نحن الآن نستجدي العلم من الغرب، ونرسل أبناءنا إليه، وهو يعطينا بعضه ويحجب عنا الكثير مما هو حساس أو مهم، خصوصاً فيما يتعلق بأدوات الصراع مع العدو الصهيوني. ونعاني من هجرة الأدمغة و "نزيف" العقول إلى العالم الغربي. ونشتري "مخزون" السلاح من الولايات المتحدة أو غيرها بعد أن نحصل على "إجازة" اللوبي الصهيوني فيها. ويقف الكيان الصهيوني بغروره وعجرفته في وضع يمكنه من هزيمة البلاد العربية مجتمعة وفق الضمانات الأمريكية ومعاهدته الاستراتيجية معها سنة ١٩٨٢م. وللكيان الصهيوني مخزون من الأسلحة النووية يزيد على ٢٠٠ قنبلة، فضلاً عن الأسلحة الكيماوية والبيولوجية. وعند الكيان الصهيوني مئات العلماء النوويين، جاء معظمهم من الاتحاد السوفييتي (سابقاً).[٩]

وفضلاً عن ذلك فإن عدداً من البلاد العربية تستورد طعامها اليومي (القمح مثلاً) من العالم الغربي، وهي تحت رحمة انقطاعه في أية لحظة لأي سبب. والشعب الذي لا يملك قوت يومه، لا يستطيع أن يملك قراره السياسي. أما مشكلة المديونية فهي معضلة كبرى أخرى، إذ ورطت بعض البلدان العربية أجيالها القادمة بديون لا تستطيع أن تتحمل فوائدها الربوية فضلاً عن أن ترد أصل المال. إن المديونية الخارجية (حسب إحصائية سنة ٢٠٠١م) لبلدان مثل تركيا١١٩ مليار دولار، و الباكستان ٣٢ مليار دولار، و مصر ٢٩ مليار دولار، والجزائر ٢٥ مليار دولار. ونلاحظ مثلاً أحد مؤشرات الضعف الاقتصادي لدول الطوق المحيط بالكيان الإسرائيلي (مصر، وسوريا، والأردن، ولبنان) من خلال أن مجموع الواردات في ميزانياتها لسنة ٢٠٠١ يقِلّ بنحو ستة مليارات عن الإيرادات السنوية للميزانية الإسرائيلية للعام نفسه (٣٤مليار دولار مقابل ٤٠ مليار دولار تقريباً). كما نلاحظ أن نصيب الفرد الواحد

---

٩ انظر بالتفصيل حول الأوضاع الاقتصادية، والعسكرية، والعلمية في الكيان الإسرائيلي في : **دليل إسرائيل العام**، تحرير صبري جريس وأحمد خليفة (بيروت : مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٦).

في الكيان الإسرائيلي من الإنفاق العسكري السنوي ١٩٩٧ دولاراً، بينما يبلغ نصيب نظيره المصري ٤٢ دولاراً، والسوري ١٤٧ دولاراً.[١٠]

تُرى؟ إذا ما جاء "صلاح الدين"، فمن أين سيبدأ العمل؟ إن ما نريد أن ندركه هنا أننا أمام قاعدتي انطلاق حضاري مادي مختلفتين.

**أمة واحدة ذات مؤسسات مجتمع مدني**

نظلم تاريخنا الإسلامي كثيراً عندما ندرسه دراسة فوقية باعتباره تاريخ أسر حاكمة. إن التقسيم التاريخي حسب الأسر الحاكمة يقطع التواصل التاريخي، ولا يعكس حقيقة حياة الأمة والمجتمعات في الواقع. وإن حصر بؤرة التركيز على التاريخ السياسي وخصوماته وصراعاته قد يعكس الجانب الأقل إشراقاً في تاريخنا.

إن روعة الإسلام والحضارة الإسلامية تكمن في إنشاء أمة ذات تكوين فريد لم يقم تكوينها على اللون، أو العرق، أو اللغة، وإنما على العقيدة. وعلى الرغم من التفتت السياسي ظل شعور المسلمين مستمراً بأنهم أمة واحدة. وقد انغرست بعمق في وجدان المسلمين معاني الإسلام وقيمه ومُثله، وهي أمور لم تكن تتأثر كثيراً بتغير الأنظمة السياسية والحكام. بل إن الانتفاضات والثورات في تاريخنا الإسلامي كانت تقوم عادة سعياً لتحقيق النموذج الإسلامي، وليس ثورة عليه. وقد شملت قاعدة الأخلاق والقيم: التكوين الأسري والحياة الاجتماعية والاقتصادية، وحققت نجاحاً مميزاً في التوفيق بين العبادة وبين الإبداع المادي. ولذلك، نجد أن لبّ الحضارة الإسلامية يكمن في روح التكافل والتراحم المنتشرة على أوسع نطاق، وفي مجانية التعليم، ومجانية العلاج، ووفرة الأوقاف التي تتولى الإنفاق على الجوانب المختلفة دون أن تكون تحت رحمة السلطات السياسية، وفي ديوان الحسبة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، وفي خلو المجتمع تقريباً من الجريمة ومن الخمر والفواحش.[١١]

وكان السلوك الحضاري الإسلامي في ميدان الحريات والتسامح الديني، والتعايش الإنساني وكفالة حقوق أهل الذمة، وتأمين الناس على أرواحهم وأعراضهم

---

١٠ انظر مثلاً حول هذه البلدان في :

http://www.cia.gov/cia/publications/factbook/geos/

١١ انظر ما كتبه محمد قطب حول هذا الموضوع في: **حول التفسير الإسلامي للتاريخ** (بيروت: دار الشروق، ١٩٨٤)، ص١٦-١٧، ٣٥، ١١٣.

وأموالهم، سلوكاً تتمناه الشعوب في أوروبا وغيرها. وقد جعل ذلك من البيئة الإسلامية بيئة مستقرة للمبدعين وجاذبة للآخرين.

وبشكل عام، فإن كثيراً من مؤسسات المجتمع المدني الاجتماعية، والتعليمية، الاقتصادية كانت مستقلة عن السلطان السياسي، وكان لقادة هذه المؤسسات، وخصوصاً العلماء، دور كبير في حماية هذه المؤسسات ورعايتها، ولم يكن أحدٌ منهم ينتظر راتب آخر الشهر، أو الميزانية السنوية من السلطات، لأن لديه ما يكفيه من عائدات الأوقاف. لقد دخل أحد الأمراء يوماً مسجداً، وكان فيه عالم جالس مادّاً رجليه، فأرسل الأمير أحد أعوانه بمالٍ إلى العالم، فقال له العالم: قل لسيدك إن الذي يمدُّ رجليه لا يمدُّ يديه!!

إن أي دراسة موضوعية لجوانب الحياة الاجتماعية، والتكافل الاجتماعي، ودور "الأوقاف" الإسلامية في ذلك تظهر أحد أكثر جوانب حضارتنا إشراقاً، وتملأ النفس اعتزازاً. وهي جوانب لم تستطع أوروبا أن تتعلم إلا بعضها حتى الآن!! فقد كان هناك مستشفيات مجانية تمتحن المريض للتأكد من شفائه ولا تسمح بخروجه إلا بعد أن يأكل رغيفاً ودجاجة كاملة!! وتعطيه مبلغاً من المال يكفيه إلى أن يصبح قادراً على العمل!! وكان هناك ثلاثون نوعاً من أنواع الوقف كالمساجد، والمدارس، والمستشفيات، وبيوت الفقراء، وعابري السبيل، والحجاج، والآبار المجانية على طول طريق السفر، ومؤسسات وقفية خاصة بالمرابطين والمجاهدين في سبيل الله تزودهم بالسلاح والذخيرة والمؤونة، ومؤسسات ترعى الجسور والطرقات، وأخرى لليتامى، والمقعدين، والعميان، والعجزة، وأخرى لتزويج الشباب والفتيات، وأخرى لإمداد الأمهات بالحليب والسكر، وأخرى لعلاج الحيوانات المريضة ... وغيرها.[١٢]

ولم يكن المسلمون يعانون من عُقَد الإقليمية والحواجز الحدودية، وكان الواحد منهم يستطيع أن يسير آمناً من الأندلس (إسبانيا والبرتغال) مخترقاً شمال إفريقيا، والسودان إلى الجزيرة العربية، والشام، والعراق، وإيران، والهند، ووسط آسيا، وغرب الصين مستظلاً بالراية الإسلامية في هذه المناطق، دونما حاجة لجواز سفر أو تأشيرة مرور، بل ويستطيع أن يقيم، ويعمل، ويتملك، ويشارك في القيادة السياسية دونما حاجة لإجراءات إقامة أو جنسية.

---

١٢ انظر مثلاً في: مصطفى السباعي، **مرجع سابق**، ص١٢١-١٢٨.

إن روح الوحدة الإسلامية وانفتاح الحدود كانت إحدى المزايا الكبرى التي استفاد منها قادة الجهاد في الحروب الصليبية، إذ شارك في المعارك العرب والأتراك والقوقاز والخوارزميون وغيرهم. وبرز في القيادة عماد الدين زنكي، وابنه نور الدين محمود وهما من الأتراك، وبرز صلاح الدين الأيوبي من الأكراد...

وكان المسلمون يشعرون بروح الكرامة والعزة والاستعلاء على الحضارات الأخرى، بما فيها العالم الأوروبي. لم يكونوا الطرف الضعيف المتلقّي وليس لديهم عقدة النقص والدونية. وهو اعتزاز لم يكن نابعاً من التقدم الحضاري المادي فقط، وإنما أيضاً بالإيمان بعظمة الرسالة الإسلامية التي يحملونها وبسموِّها، وبالقيم والمعاني التي تتضمنها.

إن دراسة الوضع الحضاري الذي "أنتج" صلاح الدين، هو في رأينا أهم بالنسبة لنا الآن من دراسة تفصيلات وتكتيكات معركة حطين (على أهميتها). إن إحدى الإشكاليات الأساسية التي قدمها المفكر الإسلامي مالك بن نبي في تخلف أمتنا المعاصر هو ما أسماه "القابلية للاستعمار"، وهو أن الاستعمار لا يتحقق إلا إذا كان الطرف الأضعف المهزوم قد تمكنت منه عقدة النقص والدونية فأصبح مبهوراً بعظمة المستعمر، وبالتالي صار عاجزاً تابعاً مقلداً له.[١٣]

وهنا تكمن إحدى الإشكاليات الأساسية في تطبيق الأنموذج المتعلق "بصلاح الدين" في واقعنا المعاصر، وهو أنموذج مرتبط بدرجة "تغوّل" السلطان السياسي على مؤسسات المجتمع المدني، وبانعكاسات الإقليمية والقطرية على حياتنا المعاصرة، وبمشاعر النقص والعجز والدونية والأيديولوجيات المستوردة المتفشية في أوساط المسلمين، وبقيم المنفعة واللذة التي أخذت تستشري في مجتمعاتهم. لقد استفاد صلاح الدين، ونور الدين محمود، ومجاهدو الإسلام في الحروب الصليبية من حالة اجتماعية أكثر تماسكاً وأكثر انفتاحاً على بعضها، وأكثر استعداداً للمبادرة والتطوع والبذل من الحالة المعاصرة.

ومن ناحية أخرى، يجب الاعتراف أن الحالة الاجتماعية للمسلمين في العهود الصليبية لم تكن مثالية، وإنما كان يعتريها بعض جوانب القصور والخلل التي كان على قادة الجهاد أن يعالجوها. فقد وفّرت حالة الرخاء الاقتصادي أجواءً من الترف، وسرى فسادٌ في أوساط التجار والوزراء والأغنياء أدى إلى سوء استخدام الأموال، وإنفاقها على الجواري، والغلمان، ومجالس الطرب، وحيث عانى المسلمون من

---

١٣ مالك بن نبي، **شروط النهضة** (بيروت :دار الفكر المعاصر، ١٩٩٣) ص ٤٢-٥١.

الخلافات المذهبية، كما عانوا من الغزو الثقافي الفكري اليوناني لميادين الفلسفة والمنطق، مما أدى إلى تعقيد دراسات التوحيد والعقيدة، وإبعادها عن صفائها وبهائها. وأدى انتشار الصوفية في صورتها السلبية إلى نوع من اعتزال المجتمع والتواكل والانقطاع عن التفاعل الإبداعي مع الحياة والواقع. ولكن ظلت هذه السلبيات في إطار يمكن التعامل معه واحتواؤه إذا ما وجدت قيادة إسلامية صادقة.

## الأوضاع السياسية

كانت حالة التمزق والتشرذم السياسي هي الثغرة الأهم التي اخترقها الصليبيون وتمكنوا بسببها من إنشاء ممالكهم الصليبية في بلاد الشام، والاستمرار نحو ٢٠٠ عام. فمنذ أن ضعفت الدولة العباسية (وخصوصاً منذ أن دخلت عهدها الثاني بعد وفاة الخليفة المتوكل في منتصف القرن الثالث الهجري) انتشرت عدوى الغصب، والتملك، والسعي لبناء البيوتات الحاكمة، وانتشرت دول الأطراف، وظهرت الخلافة الأموية في الأندلس، والخلافة الفاطمية في شمال إفريقيا ومصر. وما دام الخليفة العباسي ــ في ذلك الوقت ـ ضعيفاً، ويتحكم بالدولة من يملك القوة ويفرض على الخليفة أن يعطيه الشرعية، فقد انفتح المجال للمتطلعين الطامحين.

وقبيل بدء الحروب الصليبية سيطر السلاجقة على الخلافة العباسية في سنة ١٠٥٥م، ولكن بوفاة السلطان السلجوقي ملكشاه سنة ٤٨٥هـ، ١٠٩٢م تفككت سلطة السلاجقة ودخلوا في حروب طاحنة فيما بينهم "فانحلّت الدولة ووقع السيف" على حد تعبير ابن الأثير[١٤]. وقبيل بدء الحروب الصليبية بسنة واحدة (سنة ١٠٩٦م) انقسمت سلطنتهم إلى خمس ممالك. وفي بلاد الشام كان لهم مملكتا حلب ودمشق (التي كانت تتبعها معظم مناطق فلسطين)، وفي ظل ضعف الأخوين اللذين حكماها (رضوان ودقاق) ظهر الكثير من البيوتات الحاكمة في الشام بحيث لا يزيد حكم كثير منها عن مدينة واحدة.

وبدأت الحملة الصليبية الأولى وحاكما دمشق وحلب منشغلان بالحرب ضد بعضهما، بينما كان أخواهما الآخران (محمد وبركياروق) في صراع حربي طاحن على السلطنة في بغداد استمر خلال ٤٩٢-٤٩٧هـ، وحسب ابن الأثير فقد "طالت

---

[١٤] علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير، **الكامل في التاريخ** (بيروت: دار صادر للطباعة والنشر، ودار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٥) ج٢، ص١٦٢.

الحرب بينهما، وعمَّ الفساد، فصارت الأموال منهوبة، والدماء مسفوكة، والبلاد مخربة، والقرى محرقة، والسلطنة مطموعاً فيها محكوماً عليها، وأصبح الملوك مقهورين"١٥. وفي تلك الفترة بالذات ثبَّت الصليبيون ملكهم في فلسطين وأجزاء أخرى من بلاد الشام، واتفق لهم "اشتغال عساكر الإسلام وملوكه بقتال بعضهم بعضاً، فتفرقت حينئذ بالمسلمين الآراء واختلفت الأهواء وتمزقت الأموال".١٦

أما الفاطميون فقد قاموا بمراسلة الصليبيين عارضين عليهم التحالف ضد السلاجقة واقتسام الشام بينهما، وقاموا باحتلال فلسطين بينما كانت قوات من السلاجقة منشغلة بحرب الصليبيين. أما دول المدن فقد سعت إلى كسب وُدِّ الصليبيين فقدمت لهم شيزر المؤن والأدلّاء، وأرسلت حمص لهم الهدايا، ودفعت طرابلس لهم الجزية وأعانتهم بالأدلّاء، كما دفعت بيروت المال... ولو أن دول المدن هذه وحدت جهودها لهزمت المشروع الصليبي، وأنهته في مهده. إذ لم يكن قد بقي مع ريموند دي تولوز أمير الحملة الصليبية إلى بيت المقدس سوى ألف فارس وخمسة آلاف من المشاة فقط. ولم يحتاجوا جهداً كبيراً في لاحتلال القدس في ٢٣ شعبان ٤٩٢هـ-١٥ يوليو ١٠٩٩م وذبح سبعين ألفاً من مسلميها. ويقال إنه لم يبق بعد احتلال القدس سوى ٣٠٠ فارس صليبي وألفين من المشاة، إذ عاد الكثير منهم إلى بلدانهم بعد أن أوفوا بقسمهم.١٧

لقد أصبح الصليبيون في البداية كالجزر المعزولة في الوسط الإسلامي، ولكنهم تمكنوا من الاستمرار ٢٠٠ عام بسبب الإمدادات والحملات التي كانت تأتيهم بين فترة وأخرى من أوروبا، وبسبب تشرذم المسلمين وانقسامهم، وتأخرهم عن الإسراع في المقاومة حتى قويت شوكة الصليبيين، فضلاً عن استفادة الصليبيين من نظام القلاع المحصنة التي توفر لهم مراكز سيطرة وحماية. وكان من الملفت للنظر أن تصمد مدينة عسقلان مدة ٥٤ عاماً قبل أن تسقط في يد الصليبيين سنة ١١٥٣م، ليس لحصانتها أو لدعم الفاطميين لها فقط، وإنما بسبب روح الجهاد والتحدي في أبنائها، حيث لم

---

١٥ انظر التفصيلات في: **المرجع نفسه**، ج٨، ص١٩٠-٢٢٠.

١٦ **المرجع نفسه**، ج٨، ص٢٢٢.

١٧ انظر: **المرجع نفسه**، ج٨، ص١٨٩، وسعيد عاشور، **الحركة الصليبية: صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى** (القاهرة: مكتبة الأنجلو مصرية، ط٤، ١٩٨٦م) ج١، ص٢٢٩-٢٣٠.

تسقط مدينتهم إلا عندما تصارعوا فيما بينهم. وعلى أي حال فقد أنشأ الصليبيون إمارة الرها، وإمارة أنطاكية، ومملكة بيت المقدس، وإمارة طرابلس.

## مشروع المقاومة والتحرير

ما بين الاحتلال الصليبي للقدس سنة ٤٩٢هـ، وما بين تحريرها سنة ٥٨٣هـ (٩١سنة هجرية) ظهر أربعة قادة عظام أدى فعلهم التراكمي وجهادهم إلى تحرير القدس. وهم أقسنقر البرسقي ٥٠٨-٥٢٠هـ، وعماد الدين زنكي ٥٢٠-٥٤١ هـ، وابنه نور الدين محمود ٥٤١-٥٦٩هـ، وصلاح الدين الأيوبي ٥٦٩-٥٨٩ هـ.

لقد قام أقسنقر البرسقي بجهاد مشهود خصوصاً شمالي بلاد الشام، وكان رجلاً خيّراً عادلاً يحب العلماء والصالحين، ويحافظ على الصلوات ويقوم الليل، وقد استشهد على يد الباطنية[١٨]. ثم إن عماد الدين زنكي قام بتوحيد مناطق كبرى من شمالي العراق والشام تحت قيادته، وتمكن من إسقاط إمارة الرها الصليبية سنة ٥٣٩ هـ فكان ذلك إيذاناً ببدء اندحار المشروع الصليبي. وكان مشهوراً بالشجاعة والحزم والعدل والرفق بالرعية.[١٩]

وعندما نأتي لدراسة شخصية نور الدين محمود (٥١١-٥٦٩ هـ) نجد أنفسنا أمام شخصية إسلامية فذة، وأمام مشروع نهضوي متكامل يملك الرؤية، والعزيمة، وبرنامج العمل، وإذا كان ثمة اختيار لكاتب هذه السطور لذكر الشخص الذي قام بالدور الأهم من بين الرجال الأربعة لربما مال إلى شخص نور الدين محمود أولاً، ثم صلاح الدين.

ومن جهة أخرى، فلا يبدو أن الأمر كان مرتبطاً فقط بوجود هذه القيادات الفذة، إذ إن عملية الإعداد والتغيير لم تكن عملية فوقية فقط. فقد خدمت حركات الإصلاح والتجديد بشكل مباشر وغير مباشر مشروع الجهاد والتحرير. فقد أحيا الإمام الغزالي، والشيخ عبد القادر الكيلاني الاهتمام بالعلوم الشرعية والتصوف الإيجابي والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحاربا الخصومات المذهبية، وأضعفا من التأثيرات الفلسفية العقيمة، وأحييا روح الزهد في مواجهة المادية الطاغية والترف،

---

١٨ ابن الأثير، **مرجع سابق**، ج٨، ص٢٦٨، ٣٠٢، ٣٢٠.

١٩ **المرجع نفسه**، ج٩، ص٨-٩، ١٣. وإسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية** (بيروت: مكتبة دار المعارف، ١٩٨٣) ج١٢، ص٢٢٠.

وانتشرت حركة التوبة والعبادة والإقبال على الله في المجتمع مما يسر على أمثال نور الدين، وصلاح الدين عملية قيادة الأمة والتغيير، والجهاد بتوفير الكفاءات اللازمة لمثل ذلك. وقد هاجر عدد من خريجي هذه المدارس الإصلاحية والتفوا حول نور الدين وصلاح الدين وشاركوهم في المشروع أمثال موفق الدين بن قدامة، وموسى بن الشيخ عبد القادر الكيلاني وأسعد بن المنجا بركات وحامد بن محمود والشيخ عبد الرحمن بن عثمان الصلاح وقطب الدين النيسابوري وغيرهم.[٢٠]

لقد كان البعد الحضاري في الصراع واضحاً لدى نور الدين محمود، فقد ربط مشروع التحرير بإحياء وتفعيل حالة نهضوية عامة، وبالسعي إلى تحقيق وحدة إسلامية عامة تطوق الكيانات الصليبية وتقضي عليها[٢١]. ولذلك نجد أنفسنا أمام ثلاثة خطوط عامة:

**الأول: إحياء نهضة إسلامية عامة**، وعلاج حالات الترف والسلبية والتواكل والنزاع التي أخذت تنتشر في الجسد الإسلامي، من خلال:

١. **تقديم نموذج قيادي إسلامي صادق:** يقول ابن الأثير "طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام، وفيه إلى يومنا هذا، فلم أرَ بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين"[٢٢]. وقد عُرف نور الدين بالكفاءة القيادية العالية، وبالعلم، والتواضع، وشدة التدين، والطبيعة الجادة. وحرص أن يكوِّن طبقة من أمثاله من الصف القيادي ممن يملك القوة والأمانة دونما نظر لجنس أو بلد أو طبقة اجتماعية.

٢. **الالتزام بأحكام الإسلام وتطبيقها:** وهذا يتعلق بحسم الخيار "الأيديولوجي" فالإسلام هو قاعدة الحكم وبرنامج العمل والتعبئة باتجاه التحرير. فنشرُ العدل، والوقوف عند أحكام الشريعة، ورد المظالم، واحترام القضاء، كانت خطوطاً أصيلة في برنامج نور الدين.

---

٢٠ الكيلاني، **مرجع سابق**، ص ٩١ – ١٥٧، ١٦١-٢٠٢، ٢٥٠-٢٥٧.

٢١ انظر بالتفصيل الدراسة القيمة حول نور الدين محمود التي كتبها: عماد الدين خليل، **نور الدين محمود: الرجل.. والتجربة**، والتي سبقت الاشارة إليها، وفيها الكثير من التفصيلات المهمة.

٢٢ ابن الأثير، **مرجع سابق**، ج٩، ص١٢٥.

٣. **البناء الإيماني والتربوي والثقافي:** باستقدام العلماء وتكريمهم، وبناء المساجد والمدارس وإيقاف الأوقاف عليها، فانطلق العلماء في إصلاح النسيج الاجتماعي للمجتمع، ونشر العلم، والتعبئة للجهاد.

٤. **الإعمار والبناء الحضاري والاجتماعي:** من خلال برنامج شجع معاني التكافل والتعاون في المجتمع، والتي تتمثل في: كفالة الأيتام، وتزويج الأرامل، وعلاج الفقراء مجاناً، وبناء المستشفيات، والملاجئ، والأسواق، والطرق، والحمامات، وتوطين البدو... وسرت "عدوى" هذه النفسية المحبة للخير في رجاله، فأصبحوا يتسابقون في تقديم الخدمات للناس ورعايتهم.

٥. **البناء الاقتصادي:** من خلال ترتيب ديوان الزكاة، ونظم الجباية، وتشجيع التجارة، وتأمين الطرق، ورفع الضرائب التي تثقل حركة التجارة...

٦. **البناء الجهادي العسكري:** بإحياء المعاني الجهادية في النفوس، وتشجيع الصناعات الحربية، وحسن اختيار القادة، وحماية المدن، وبناء الأسوار...

ووفق هذا البرنامج سعى إلى تحقيق هدفيه في الوحدة والتحرير.

**الثاني: الوحدة الإسلامية:** وقد سار نور الدين في هذا الخط ضمن برنامج دؤوب متأنٍ، حرص فيه على كسب قلوب الناس، واستمالة القوى الإسلامية الحاكمة إلى صفه، والابتعاد قدر الإمكان عن إراقة دماء المسلمين. وقد نجح في تحقيق حالة ضغط شعبي داخلي على حكام دول المدن سعياً للوحدة وضماً للجهود. حيث توالت سيطرته على مدن الشام وقلاعها، وكان أبرز إنجازاته ضمّ دمشق سنة ٥٤٩ هـ- ١١٥٤م. على أن إنجازه الأكبر كان السيطرة على مصر سنة ٥٦٤ هـ- ١١٦٩م وقيام واليه على مصر "صلاح الدين الأيوبي" بإسقاط الدولة الفاطمية ٥٦٧ هـ- ١١٧١م وضمّها للقيادة الفعلية لنور الدين.

وضم نور الدين شمال العراق سنة ٥٦٦ هـ- ١١٧٠م، كما ضم اليمن سنة ٥٦٩ هـ-١١٧٣م بحملة أرسلها صلاح الدين من مصر. وبذلك كوّن في آخر عهده جبهة إسلامية متحدة تمكنه من اقتلاع الوجود الصليبي.

**الثالث: تحطيم القوى الصليبية**

وقد سار في هذا الخط بشكل متواز مع خط الوحدة الإسلامية وقام بعمليات مناوشات وإضعاف واستيلاء تدريجي على الممالك الصليبية، في الوقت الذي كان

يعدُّ فيه للمعركة الفاصلة. وكان له الدور الأساس في تحطيم الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧-١١٤٨م) التي قادها ملك فرنسا وإمبراطور ألمانيا. وقد أظهر نور الدين بطولة وقدرة عسكرية فذّة مكّنته من استرجاع وتحرير حوالي خمسين مدينة وقلعة كانت تحت سيطرة الصليبيين.

وفي سنة ٥٦٩ هـ/١١٧٣م كان نور الدين قد أعدّ عدته للهجوم النهائي على مملكة بيت المقدس، وجهّز منبراً جديداً رائعاً للمسجد الأقصى، وراسل واليه على مصر "صلاح الدين" الذي تلكّأ بسبب ما ذكره من ظروفه الخاصة والفتن التي يواجهها في مصر. فقرر نور الدين الذهاب بنفسه إلى مصر لترتيب أمورها لكنه توفي في ١٥ مايو ١١٧٤م — ١١ شوال ٥٧٠هـ. لقد استطردنا في شرح تجربة نور الدين، لأنه قدَّم نموذجاً حضارياً ومشروعاً للتحرير فهو جدير بالدراسة والتأمل في واقعنا المعاصر. ولأنه هيّأ لصلاح الدين قاعدة الانطلاق التي مكنته من تحرير القدس.

## صلاح الدين

وقد سار صلاح الدين (٥٣٢-٥٨٩هـ) على خطى سلفه نور الدين لتحقيق النهضة الحضارية، واستكمال مشروعي الوحدة والتحرير، مما لا حاجة إلى تكراره. وقد أحدث توليه منصب الولاية في ولاية مصر (وزير الخليفة العاضد ووالي نور الدين) هزّة إيجابية عميقة في كيانه (أشبه بتلك الهزّة التي أحدثها تولّي عمر بن عبد العزيز للخلافة) حيث شمّر عن ساعد الجد وبذل نفسه لله. وتميز صلاح الدين بعدله، وتقواه، وكرمه، ورحمته بالرعية، وحسن عشرته، وشجاعته وعلو همته، حتى أنه نوى أن يلاحق الصليبيين في بلدانهم وقال: "في نفسي أنه متى ما يسر الله تعالى فتح بقية السواحل قسّمت البلاد وأوصيت وودعت، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتتبعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت".[٢٣]

كان التحدي الأول والأهم الذي واجهه صلاح الدين هو إعادة الوحدة التي بناها نور الدين من جديد!! إذ بويع ابن نور الدين "الصالح إسماعيل" وهو صبي في الحادية عشرة من عمره. وانفتحت شهية من حوله من الأمراء والطموحين للسيطرة

---

٢٣ حول صفات صلاح الدين وأخلاقه، انظر: بهاء الدين بن شداد، **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية** (مصر: شركة طبع الكتب العربية، ١٣١٧هـ) ص٤-٢٨.

وبناء بيوتات الحكم في دول المدن من جديد. وهكذا، فتحت إشكالات الحكم الوراثي، وانعدام المؤسسات "الدستورية" الشورية، والتنازع على السلطة الباب على مرحلة من الصراع، اضطر صلاح الدين على إثرها أن يخوض معركة الوحدة من جديد، وقد احتاج ذلك منه إلى ١٢ عاماً، مما أدى إلى تأخر المعركة الحاسمة مع الصليبيين طوال هذه المدة. وقد استمر صلاح الدين في تنفيذ استراتيجية المشاغلة نفسها لإضعاف الخصم وإنهاكه، ريثما تكتمل عدته للتحرير.

وقد كانت معركة حطين (شمال شرقي فلسطين) في ٢٤ ربيع الآخر ٥٨٣هـ- ٤ يوليو ١١٨٧م معركة فاصلة في التاريخ الإسلامي وتاريخ الحروب الصليبية، إذ قتل المسلمون بقيادة صلاح الدين ثلاثين ألف صليبي وأسروا ثلاثين ألفاً آخرين، من بين ٦٣ ألف مقاتل كانوا قوام الجيش الصليبي. وقد أُسر جميع ملوكهم وأمرائهم ما عدا أمير طرابلس، "ولم يسمع بمثل هذا اليوم في عز الإسلام وأهله، ودفع الباطل وأهله... وباع بعضهم أسيراً بنعلٍ ليلبسها في رجله، وجرت أمور لم يسمع بمثلها إلا في زمن الصحابة والتابعين".[٢٤]

وقد فتحت معركة حطين الطريق لتحرير معظم أنحاء فلسطين، وأجزاء من لبنان، وخلال شهرين تمكن صلاح الدين من تحرير خمسين مدينة وقلعة[٢٥]، كان أحدها يحتاج سنوات من الحصار لاقتحامه. ثُمَّ تمكَّن صلاح الدين من تحرير بيت المقدس بعد حصار استمر ١٢ يوماً، وبعد أن طلب الصليبيون الأمان مقابل تسليم المدينة، وتم ذلك في ٢٧ رجب ٥٨٣هـ-٢ أكتوبر ١١٨٧م. وظهر من تسامح صلاح الدين وكرمه ما أشاد به أعداؤه الصليبيون أنفسهم. ثم تابع صلاح الدين انتصاراته الساحقة فحرر باقي أنحاء فلسطين، ومناطق الكرك، والشوبك شرقي الأردن، واللاذقية وغيرها غربي سوريا.

لقد تمثلت روعة إنجاز صلاح الدين في الضربة السريعة الساحقة التي وجهها للمشروع الصليبي في بلاد الشام. وكان على صلاح الدين أن يترقب حملة صليبية كبرى بعد أن هزَّ هول الصدمة البابوية في روما والعروش الأوروبية، فجاءت الحملة الصليبية الثالثة بقيادة أعظم ملوك أوروبا وهم ملوك ألمانيا، وبريطانيا، وفرنسا. وفي

---

٢٤ ابن كثير، **مرجع سابق**، ج٢، ص٣٢٠-٣٢١. وابن الأثير، **مرجع سابق**، ج٩، ص١٧٨.

٢٥ ابن كثير، **مرجع سابق**، ج١٢، ص٣٢٢.

الوقت نفسه يبدو أن صلاح الدين "دفع ثمن" شهامته وتسامحه بإطلاق سراح الصليبيين (بما فيهم جاي ملك بيت المقدس) والسماح لهم بأخذ كل ثرواتهم وأموالهم، والسماح لهم، كذلك، بالتجمع في مدينة صور، حيث بدأوا يرسلون من هناك الاستغاثات وتأتيهم الإمدادات حتى قويت شوكتهم، وتولى جاي قيادة الصليبيين هناك، بعد أن نكث عهده لصلاح الدين بالعودة إلى فرنسا، "وكان ذلك كله بتفريط صلاح الدين في إطلاق كل من حصره، حتى عض بنانه ندماً وأسفاً حيث لم ينفعه ذلك" على حد تعبير ابن الأثير.[٢٦]

وانفتحت أبواب الحرب من جديد، وتمكنت الحملة الصليبية من إيجاد موطئ قدم لها في فلسطين بسيطرتها على عكا في ٥٨٧هـ-١١٩١م، وتداول الطرفان الانتصارات، واستطاع الصليبيون الانتشار على الساحل جنوباً فاحتلوا حيفا ويافا. وقد كان الصراع دموياً مريراً، فقد صمد صلاح الدين ٣٧ شهراً عند عكا، وبلغ جملة ما قتله الصليبيون خمسون ألفاً.[٢٧]

وقد انتهت الحملة الصليبية الثالثة بصلح الرملة في شعبان ٥٨٨هـ-سبتمبر ١١٩٢م وهي هدنة لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر، سيطر الصليبيون بمقتضاها على الساحل من عكا إلى يافا، وسمح لهم بزيارة القدس وحرية التجارة. ولم يكن صلاح الدين راغباً في عقد الصلح، غير أن قادة جيشه ومستشاريه أصروا على ذلك بحجة خراب البلاد، وتعب الأجناد، وقلة الأقوات، ولأنه إذا ما حدثت الهدنة عاد قادة الصليبيين والكثير من جندهم إلى بلدانهم، وتفرقوا وانحلّوا[٢٨]. ولم يطل الأمر بصلاح الدين فتوفي في ٢٧ صف ٥٨٩هـ- ٤ مارس ١١٩٣م بعد عقد صلح الرملة بستة أشهر. ولم ينته الوجود الصليبي إلا بعد ذلك بنحو مائة عام.

**ملاحظات على التجربة**

١. استفادت تجربة جهاد الصليبيين من القاعدة الحضارية المتقدمة المتفوقة للعالم الإسلامي، ومن روح الوحدة التي لم تلوثها الحواجز الإقليمية ولا الجنسيات العرقية.

٢. إن الصراع والتشرذم السياسي كان الثغرة التي نفذ منها الصليبيون ليشكلوا ممالكهم.

---

٢٦ ابن الأثير، **مرجع سابق**، ج٩، ص١٩٧.

٢٧ ابن كثير، **مرجع سابق**، ج١٢، ص٣٤٥.

٢٨ انظر: العماد الأصفهاني، **الفتح القسي في الفتح القدسي**، ص٦٠٣-٦٠٥.

٣. إن مشروع التحرير الذي قاده نور الدين محمود وصلاح الدين لم يكن مشروعاً قتالياً فحسب، وإنما كان مشروعاً للنهضة الحضارية التي بنيت على أسسها مشاريع الوحدة والتحرير.

٤. دفع المسلمون غالياً ثمن انعكاسات عدم وجود مؤسسات شورية "دستورية" مستقرة تتولى إدارة الحكم واختيار الحاكم الأصلح الجديد.

ودونما دخولٍ في التفصيلات فإن القادة الأربعة - الذين أشرنا إليهم - هم في نهاية الأمر سلاطينٌ يتبعون اسمياً ورسمياً الخليفة العباسي المغلوب على أمره في بغداد، والذي يعطيهم "بركاته" فقط، دونما سلطان فِعليّ عليهم. وكان من أسوأ مظاهر حكم السلاطين في ذلك العصر أنه جرت عادتهم إذا ما مات أحدهم أن تتوزع مناطق السلطنة بين أبنائه، فتقع بينهم الحروب على الأرض وعلى النفوذ، ويضطر أحد الأبناء — إن كان صادقاً — أن يبدأ من جديد مشوار توحيد ما وحدّه أبوه من قبل، وتضيع في ذلك الكثير من السنوات والجهود.

فقد انقسمت سلطنة عماد الدين زنكي بوفاته بين ابنيه نور الدين محمود في حلب وسيف الدين غازي في الموصل، واحتاج نور الدين نحواً من ٢٥ عاماً حتى تمّ له ضم الموصل، بعد وفاة أخيه. غير أن أكبر مظاهر المأساة كانت عندما قسّم صلاح الدين ملكه بين سبعة من إخوانه وأبنائه وأقربائه، فصارت دولته التي بذل الغالي والنفيس في توحيدها سبع دول ودويلات متنازعة تستنصر بالصليبيين على بعضها البعض، بل ويعرض بعض زعماؤها من أحفاد صلاح الدين القدس على الصليبيين للاستعانة بهم. وقد فعل ذلك الكامل محمد (حاكم مصر) الذي استنجد بفريدريك الثاني إمبراطور ألمانيا ضد أخيه المعظم عيسى حاكم دمشق، فجاء فريدريك على رأس الحملة الصليبية السادسة سنة ٦٢٥هـ– ١٢٢٨م بعد أن مات المعظم عيسى، ولم تعد للكامل حاجة به، ولكن الكامل سلمه القدس "وفاءً" بعهده!! في فبراير ١٢٢٩م. وبعد عشر سنوات تحررت القدس لفترة وجيزة لكن الصالح إسماعيل صاحب دمشق سلمها للصليبيين مرة أخرى سنة ١٢٤٠ بعد أن طلب مساعدتهم ضد نجم الدين أيوب صاحب مصر. وعندما اشتد بين الاثنين الخصام، عرض الاثنان على الصليبيين التحالف مقابل سيطرتهم التامة على القدس بما فيها الصخرة والمسجد الأقصى!! وعلى أية حال فقد تحررت القدس نهائياً سنة ١٢٤٤م.[٢٩]

---

٢٩ انظر حول ما سبق في: ابن كثير، **مرجع سابق**، ج١٣، ص١٢٣-١٢٤. وسعيد عاشور، **مرجع سابق**، ج٢، ص٧٩١-٨٢٦.

تُرى؟ ما العذر الذي نجده لصلاح الدين عندما قسم ملكه هكذا؟! ربما كان الأقرب إلى الصواب هو أن عذره كان الاحتكام لعادات وتقاليد ذلك العصر التي جرت على ذلك، وعدم جاهزية الأبناء والأقارب للقبول بزعيم واحد عليهم، فآثر توزيع الملك بينهم حتى لا يختلفوا. ولكن، ألم يكن صلاح الدين يدرك مرارة تحقيق مشروع الوحدة وطوله؟!! ألم يكن يدرك ضرورة وجود قيادة مركزية واحدة تواجه المشروع الصليبي وتزيله؟!! وعلى أي حال، فما أدرى صلاح الدين أن أحفاده سيفعلون ما فعلوا. لقد كان اجتهاداً منه، ولعله أخطأ فيه، وله أجر المجتهد، وكفاه عظمة ما فعل، وكفاه نُبلاً أن تُعد أخطاؤه!!

## إمكانية تكرار النموذج وتطويره

هل يعيد التاريخ نفسه؟ لن نشغل أنفسنا كثيراً بفلسفة ما إذا كان التاريخ يعيد نفسه أم لا. وما نراه أن الأيام لا تعود، وإنما قد تتشابه الظروف الموضوعية بين حدثين تاريخيين مما قد يؤدي إلى نتائج متشابهة، لأن الإنسان والمكان هما جانبان أساسيان في حركة التاريخ وهما موجودان دائماً إلى يوم القيامة. لكن عملية التراكم المعرفي وجوانب الحضارة المختلفة تشهد اختلافاً كبيراً.

إن هناك عناصر تشابه بين حملات الحروب الصليبية وبين الغزوة الصهيونية-الغربية المعاصرة، أبرزها:

- المكان: فلسطين (وخصوصاً) القدس التي تحتل الجانب الأكثر مركزية في الصراع.
- اعتماد المشروعين على الهجرة من أوروبا بالذات.
- وجود الدعم الأوروبي الغربي في كلا الحالتين.
- وجود دوافع دينية وعداء تاريخي في كلا الحالتين.

**أما عناصر الاختلاف فأبرزها:**

- اليهود وليس النصارى كانوا المادة البشرية للمشروع في التاريخ المعاصر.
- أن المشروع الصهيوني كان من أسبابه الرئيسة وجود المشكلة اليهودية في أوروبا، والعداء للسامية، وما تعرض له اليهود على يد الأوروبيين أنفسهم.
- أن الجانب الصهيوني ـ الغربي يمثل حالة حضارية مادية متقدمة، ومتفوقة على الجانب العربي والإسلامي.
- النفوذ اليهودي الدولي غير المسبوق في الدول الكبرى سياسياً، واقتصادياً، وإعلامياً.

أما بالنسبة للمسلمين فأبرز جوانب التشابه:

- حالة التفكك السياسي، وتمزق العالم العربي والإسلامي إلى كيانات متشرذمة.
- غياب القيادة الإسلامية الكفؤة التي تستطيع توحيد الأمة وتعبئة الطاقات للجهاد.

وأبرز جوانب الاختلاف:

- سقوط الخلافة الإسلامية وظهور الدول العلمانية.
- التخلف الحضاري المادي الكبير مقارنة بما كانوا عليه سابقاً.
- انتشار الأيديولوجيات المستوردة، وظهور الدول القطرية، وتزايد تعقيدات إمكانية الوحدة.
- انتشار عقدة الدونية والنقص، وتقليد الغربيين، ووجود حالة "القابلية للاستعمار" بشكليها المباشر وغير المباشر.
- ضعف إمكانات التحدي والمواجهة خصوصاً في ميدان الأسلحة وحرب الجيوش.
- ضعف مؤسسات المجتمع المدني، "وتغوّل" الدولة وسيطرتها على الجوانب الحياتية المختلفة للناس.
- حالة اللااستقرار السياسي في كثير من البلدان العربية والإسلامية بما في ذلك من تغييب للحريات والديموقراطية، وأزمة الثقة بين الحكومة والشعب، وبين السلطة والمعارضة.

ولكن هل يعني ذلك أن المشروع الصهيوني جاء ليبقى؟ وأن النموذج الإسلامي غير قابل للتكرار؟! كلا!!

لقد لاحظنا أن حركة التاريخ الإسلامي تتسم بالسلوك "الموجي" أي أنها أشبه بالموجات التي تسير ارتفاعاً وهبوطاً عبر الزمن، ولكنها لا تموت. والحضارة الإسلامية ليست كالحضارات البائدة من فرعونية، وهندية، وآشورية، وإغريقية، ورومانية وغيرها، والتي تنطبق عليها الدورة الحضارية التي تبدأ بالولادة ثم الشباب، ثم الشيخوخة، ثم الوفاة. لسبب أساس هو أن هذه الحضارات كانت تفقد أصولها التي بنت حضارتها عليها مع الزمن. أما الحضارة الإسلامية فإن الله سبحانه قد تكفل بحفظ أصولها العليا وهي القرآن الكريم والسنة النبوية. ذلك أن الأمة الإسلامية أمة مستخلفة في الأرض، وهي التي تحمل الرسالة الخاتمة للبشرية والتي فيها شفاؤها وسعادتها. وفي هذه الأصول من التوجيهات والإرشادات ما يضمن النمو الحضاري، وتحقيق عمارة الأرض في توازن رائع بين مقتضيات المادة والروح.

ولكن لله سنناً لا تتخلف، ولا تجامل أحداً، حتى لو كان مسلماً. فالظلم، والتفرق والتنازع، والفساد، والترف، والبعد عن تحكيم كتاب الله، والجمود العلمي،

وترك الجهاد، وكثرة المعاصي هي ثمانية أسباب من موجبات الضعف والتخلف. وما دامت هذه الأمور متفشية في المسلمين فإنهم سيبقون على ضعفهم.

وبقدر ما يستطيع المسلمون تحقيق شروط الاستخلاف في الأرض من تمسك بكتاب الله وسنة رسوله، ومن وحدة سياسية، وقيادة كفؤة، ونشر للعدل والحرية، ومحاربة لمظاهر الفساد والترف، والإعداد الحضاري والجهادي المكافئ... بقدر ما تتهيأ الظروف التي يمكن أن تنتج "صلاح الدين" جديداً.

ومن جهة أخرى فقد لاحظنا عبر التاريخ أن أجواء التحدي التي يصنعها الخصم تثير عادة "المضادات الحيوية" في جسد الأمة وتحفزه على مراجعة النفس، ومحاولة إدراك ما فات. وهذا عادة ما يدفع إلى ظهور النماذج الأولى التي تملك الرؤية والوعي وأدوات البناء كما تملك القدرة على التضحية. ثم يستتبع ذلك حالة نهضوية تعبر عن نفسها في تغيير جوهري في نواحي الحياة المختلفة، وهو ما يؤدي في النهاية إلى ظهور النموذج "الرمز" الذي يحقق الاستثمار الناجح لحالة النمو الحضاري، ويقطف الثمرة وحدة وتحريراً وارتقاءً.

ولعل الله قدَّر أن يكون المشروع الصهيوني هو الحقنة المؤلمة في جسد الأمة الإسلامية الواهن، والتي ستحفز المضادات الحيوية فيها لتبدأ مسيرة التحدي بما فيها من معاناة ودماء، ولكنها مسيرة النهضة والشفاء والمعافاة بإذن الله. ولعل أبرز ضمانة فيها أن الله سبحانه وعدنا بالنصر يوماً على اليهود في فلسطين، وكذلك أخبرنا رسول الله ﷺ.

**خلاصات**

١. إن الإسلام يمثل الروح الدافعة الأقوى للوحدة والجهاد، والطاقة الأبرز المحركة للجماهير، ويملك رصيد التاريخ الذي يثبت نجاح تبنيه حلاً لمشاكل الأمة وتحديات الواقع.

٢. إنه لا بُدَّ من مشروع نهضويّ حضاريّ متكامل يوفر القاعدة الصلبة لمشروع التحرير، سياسيّاً، واجتماعيّاً، واقتصاديّاً، وعسكريّاً...

٣. إن الوحدة العربية الإسلامية طريق التحرير، وخصوصاً في بلدان الطوق، ولكن ليس حتماً الانتظار حتى تتوحد كل بلدان العالم الإسلامي (وإن كان هذا أمراً مرغوباً)، ولكن تنسيق الجهود وتعبئة الصف أمر ضروري لتحقيق الهدف.

٤. إن خط الجهاد يمكن أن يسير جنباً إلى جنب مع خط الوحدة، ويمكن أن يستثمر في مشاغلة الخصم وإضعافه وإنهاكه إلى أن تحين اللحظة المناسبة.

٥. إنه لا بد من علاج سليم ومستقر لنظام الحكم وتداول السلطة، بتقوية المؤسسات الدستورية ومؤسسات المجتمع المدني، ودور العلماء والمفكرين...